الأدبيات اللغوية التأسيسية في الأنثروبولوجيا الثقافية

أ.م.د. ياس خضر عباس العباسي

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب / قسم الانثروبولوجيا والاجتماع

Email: Yasoo2oo7@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ٣/١/ ٢٠١٩

تاريخ القبول: ٢٠١٩/٢/٥

الملخص :

على الرغم من امتلاك جميع الجماعات البشرية لغة بالمعنى الضيق، إلا أنه يمكن التصور والايقان في قدرة البشر على تعلم كل لغة من آلاف اللغات وفهمها من المتحدثين بلغات أخرى، إذ يشترك الأنثروبولوجي بالتصور والفهم مع علماء اللغة في تلك الفكرة التي تشير الى أن اللغة البشرية متميزة بشكل كاف، ومعقدة وواسعة النطاق بحيث تتطلب الدراسة الأكاديمية في حد ذاتها، ولكن هذا لا يعني اتفاق علماء الأنثروبولوجيا واللغويين على ما يشكل طبيعة اللغة وكيف ينبغي دراستها، وانما بالنسبة للأنثروبولوجي فانها تشغل عنده جانبا واسعا من النشاط الإنساني وتفكيره وتنظيم سلوكياته وتفاعلاته مع محيطه، وانها تمثل أداة مهمة في الكشف عن طبيعة الإنسان وجانبا من مقومات وجوده، فضلا عن ذلك، عندهم نظرة واسعة للتراكيب اللغوية والألفاظ والتصورات الفكرية نتيجة أعمالهم الحقلية والإقامة المشاركة مع ثقافة الناس التي قيد الدرس، على العموم، يتجه هدف البحث نحو بيان أهم الإسهامات اللغوية في مجال الدراسة الأنثروبولوجية، في حين تظهر الأهمية في مناقشة الأدبيات التأسيسية التي توجهت نحو موضوع اللغة ولاسيما إسهامات الأستاذ فرانس بواس والتوجه اللغوي الوصفي على مستوى المدرسة الامريكية وإسهامات الأستاذ (برنسلاف مالينوفسكي) والتوجه السياقي على مستوى المدرسة البريطانية.

الكلمات المفتاحية: الانثروبولوجيا الثقافية، اللغويات، فرانس بواس، برنسلاف مالينوفسكي

Foundational Linguistic Literature in Cultural Anthropology

By Dr. Yass Al-Abbasi
AL Mustansiriyah University
College of Arts - Department of Sociology and Anthropology

Abstract:

Although all human groups have a language in the narrow sense, it is possible to visualize and confirm the ability of human beings to learn each language from thousands of languages via understanding it from speakers of other languages. Anthropologist shares the perception and understanding with linguists in the idea that human language is sufficiently distinct, complex and extensive to require academic study per se, but this does not mean that anthropologists and linguists agree on what constitutes the nature of the language and how it should be studied, but for anthropology it occupies a wide range of human's activity, thinking, and his activities with the surroundings, and it represents an important tool in the detection of the nature of the human being and the elements of its existence, as well as, they have a broad view of linguistic structures and words and perceptions of intellectual result of their work and stay involved with the culture of people under study. The objective of the research is to highlight the most important linguistic contributions in the field of anthropological study, while showing the importance in the discussion of the founding literature, which focused on the subject of language, especially the contributions of Professor F. Boas and the descriptive orientation at the level of American school and the contributions of Professor B. Malinowviski and contextual orientation at the level of British school.

Keywords: cultural anthropology, linguistics, F. Boas, B. Malinowviski

المقدمة

استعمل اصطلاح الأنثروبولوجيا اللغوية أو اللسانية واللسانيات الأنثروبولوجية في الماضي تبادليا بشكل أو بآخر وتعد أي محاولة لتعقب الفروق الدلالية أو العملية امرا معقدا، وقد حاول (D. Hymes) بوصفه مؤرخاً انثروبولوجيا دقيقاً تثبيت استعمال مصطلح الأنثروبولوجيا

اللغوية في عدد من المقالات في أوائل الستينيات، ويمكن العثور عليهما بالتناوب في اللغة والثقافة والمجتمع، إذ صرح بوضوح عن هذه النظرة ومجال الأنثروبولوجيا اللغوية الحقلي عندما وصفها بأنها دراسة الكلام واللغة في سياق الأنثروبولوجيا ودراسة اللغة كمورد ثقافي والتحدث عنها كممارسة ثقافية، وفهم الجوانب المتنوعة للغة كمجموعة من الممارسات الثقافية، وبوصفها نظام للتواصل الذي يسمح للتأثير المتبادل بين الأفراد وفي ذات الفرد وبيان مدى تمثيلها للنظام الاجتماعي والمساعدة على استعمال مثل هذه التمثيلات في الفعاليات الاجتماعية التأسيسية وجعلها (اللغة) شأناً نظرياً مركزياً وأداة لا غنى عنها في الأنثروبولوجيا الثقافية.

وهذا يعني بأن يرى علماء الأنثروبولوجيا اللغوية موضوعات دراستهم، أي المتحدثين، أولاً وقبل كل شيء، كفاعلين اجتماعيين، وأعضاء في مجتمعات معقدة بشكل مثير للاهتمام، كل منهم منظم في مجموعة متنوعة من الأنساق الاجتماعية ومن خلال شبكة تتداخل فيما بينها ولكن ليس بالضرورة مجموعات متداخلة من التوقعات والمعتقدات والقيم الأخلاقية عن العالم أو المحيط. لذا يتجه هدف البحث نحو بيان أهم الاسهامات اللغوية في مجال الدراسة الأنثروبولوجية، وتظهر الأهمية في مناقشة الأدبيات التأسيسية التي توجهت نحو موضوع اللغة ولاسيما إسهامات (فرانس بواس) في التوجه اللغوي الوصفي على مستوى المدرسة الأنثروبولوجية الامريكية واسهامات (برنسلاف مالينوفسكي) في التوجه السياقي على مستوى المدرسة البريطانية.

أولا: المجال والأهمية

يندفع تركيز علماء الأنثروبولوجيا اللغوية نحو التعامل بطرائق مبتكرة مع بعض القضايا والموضوعات التي هي في صميم البحوث الأنثروبولوجية الثقافية مثل سياسات التمثيل، وتكوين السلطة، وشرعية القوة، والأساس الثقافي للعنصرية والنزاع العرقي، وعملية التنشئة الاجتماعية، والبناء الثقافي للشخص (أو الذات)، وسياسات العاطفة، والعلاقة بين الأداء الطقوسي وأشكال الرقابة الاجتماعية أو صور الضبط الاجتماعي، وميدان المعرفة والإدراك الخاص بالأفراد، والأداء الفني وسياسات الاستهلاك الجمالي، والاتصال الثقافي والتغير الاجتماعي. وتشمل هذه الاهتمامات نقل الثقافة وتوالدها، والعلاقة بين النظم الثقافية والأشكال المختلفة للتنظيم الاجتماعي، ودور الظروف المادية للوجود في فهم الناس للعالم.

ويتجه العديد من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية المعنيين باللغة الى رؤية اللغة في المقام الأول كنظام للتصنيف والتمثيل وفي التشديد على وجهة نظر التي مفادها بأن اللغة كمجموعة من الممارسات، تلعب دوراً أساسياً في التوسط بين الجوانب الفكرية والمادية للوجود الإنساني، وبالتالي، في إيجاد طرق معينة لبيان وجودهم وفهمهم للعالم المحيط بهم. ووجهة النظر الديناميكية هذه للغة تعطي الأنثروبولوجيا اللغوية مكانها المميز بين فروع المعرفة في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية الأخرى.

عادةً ما تشير اللغة إلى النظام البشري لوحدات الصوت (phonemes) المركب إلى كلمات، التي بدورها مجتمعة من خلال القواعد النحو (syntactically) لتشكيل نمط اتصال يمكن تحقيقه في كل من الكلام والكتابة. وتبنى العديد من علماء الأنثروبولوجيا نظرة واسعة لموضوع اللغة، عند دراسة جميع قنوات وأنماط التواصل التي يستعملها البشر لأجل تنظيم ونقل المعنى، بما في ذلك السمات شبه اللغوية أو المحاذية (paralinguistic)، مثل الإيماءة وتعبير الوجه ونبرة الصوت وما إلى ذلك، وبيان الادعاء الذي في كثير من النواحي في غير محله بأن لديها ميزة الكشف عن الجدل عما إذا كانت الحيوانات الأخرى لديها لغة. إذ أظهرت الدراسات التفصيلية للنحل والطيور والقردة والدلافين، ضمن أشياء أخرى كثيرة، بشكل قاطع أن لديها أنظمة معقدة للغاية من الاتصالات داخل الفصائل الحياتية، والتي يمكن، بصعوبة بالغة، فك رموزها بواسطة مراقبين بشريين، كما يحدث هذا التواصل عبر الفصائل أو الأنواع، وليس أقلها بين البشر والحيوانات الأخرى، سوف يتم تأكيده من أي شخص على دراية بالحيوانات الأليفة، ومن المؤكد أن القردة والكلاب، إلى حد ما، أو يمكن أن يتم تدريب الكلاب القطط والأغنام بالكاد على التفاعل مع البشر بشكل هادف، وإلى حدٍ ما العكس (أي مع التقارب على قناة وأسلوب اتصال مرضٍ للطرفين).

يكمن تميز الأنثروبولوجيا اللغوية في اهتمامها بالمتحدثين كممثلين اجتماعيين، وفي اللغة كمصدر ومنتج للتفاعل الاجتماعي، وفي مجتمعات الكلام ككيانات حقيقية وتصورية في وقت واحد، وانه يتم إعادة تشكيل حدودها باستمرار والتفاوض من خلال الأفعال التي لا تعد ولا تحصى للتحدث، وقد وجد علماء الأنثروبولوجيا اللغوية منذ أمد بعيد أنه من المفيد جمع

نصوص أشكال الفن اللفظي، كوسيلة للحصول على مجموعة من الخطاب الطبيعي الممتد للتحليل اللغوي تقليديا، وقد ركز هذا التحليل على الجملة كوحدة أساسية، وامتاز أيضا بتوفير وسيلة للتحقيق في الأنماط اللغوية بما يتجاوز الجملة، على أنها نقطة جوهرية متطورة للاهتمامات اللغوية.

وتعد مجالاً متعدد التخصصات موجه لدراسة اللغة بوصفها مورداً ثقافياً والتحدث عنها بوصفها الممارسة الثقافية، بافتراض مفاده: أن مَلَكَة اللغة البشرية هي إنجاز معرفي وإنساني قادر على توفير الأدوات الإدراكية للتفكير والعمل في العالم، على أن تتم الدراسة عن طريق توثيق مفصل لما يقوله المتحدثون أثناء مشاركتهم في الأنشطة الاجتماعية اليومية، ويعتمد هذه التوثيق على ملاحظة المشاركين، بما في ذلك التسجيل السمعي–بصري، وعملية النسخ، والمقابلات مع المشاركين.

وبوصفها مجالا متعدد التخصصات، غالبًا ما استُنبطت الأنثروبولوجيا اللغوية من النماذج النظرية الأخرى وشاركت في تطويرها، وينعكس بعض من تاريخها الخاص في التذبذب الذي يوجد غالبًا بين عدد من المصطلحات التي لا تكون دائمًا مترادفة: كالأنثروبولوجيا اللغوية، وعلم اللغة الأنثروبولوجي(Anthropological linguistics)، وعلم اللغة الإثني (Ethnolinguistics)، وعلم اللغة الاجتماعي. وقد تغيرت مجالات اهتمامها الرئيسية على مر السنين، من اهتمام حصري تقريبًا بتوثيق قواعد النحو للغات السكان الأصليين إلى تحليل استعمالات الحديث في التفاعل اليومي وطوال العمر(Duranti. A 1997 p:4).

مثلا تأخذ التحية في العديد من المجتمعات، شكل أسئلة عن صحة الشخص، على سبيل المثال كيف حالك؟ وفي مجتمعات أخرى، تشمل التحية أسئلة عن مكان وجود المشاركين، كما هو الحال عند البولينيزى أين أنت ذاهب؟ إذ ناقش (R. Firth) العديد من الأسئلة التي يمكن أن عرضها وفرضيات يمكننا التفكير فيها عند دراسة مثل هذه الظواهر، هل لهذه الأسئلة صيغة معينة؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا تعد الطريقة التي يجيب بها المرء مهمة؟ وهل تكشف التحية محتوى مثل هذه التبادلات الروتينية شيئًا عن المستخدمين، وأسلافهم، البشرية ككل؟ ولماذا يؤدي الناس تحية على الإطلاق؟ ومعرفة متى يجب عليهم التحية أو من يرحب بهم؟ وهل تُظهر

أوجه التشابه والاختلاف في التحية عبر أصناف اللغات ومجتمعات الكلام وأنواع اللقاءات داخل المجتمع نفسه وأي شيء مثير للاهتمام عن المتحدثين أو الى المتحدثين؟ كما يولي علماء الأنثروبولوجيا اللغوية قدراً كبيراً من الأهمية لممارسات الكتابة، أي الطرائق التي يتم بها توثيق كل من الأنشطة الخطابية والنشاطات الرمزية الأخرى (Firth, R. 1972 p:7)

ثانيا: المدرسة اللغوية الوصفية الأمريكية(البواسية)

تنقسم الانثروبولوجيا إلى أربعة حقول فرعية في أدبيات المدرسة الأنثروبولوجية الامريكية هي: علم الآثار(Archaeology)، والأنثروبولوجيا الفيزيقية (physical) أو البيولوجية حاليا، واللسانيات (linguistics) أو الأنثروبولوجيا اللغوية، والاثنولوجيا أو الأنثروبولوجيا الثقافية حاليا (Cultural)، نسبة الى تلك التقاليد الشمولية التي أسسها فرانز بواس (١٨٥٨ – ١٩٤٢م) في الولايات المتحدة الأمريكية بداية القرن العشرين، التي تتباين في رؤيتها للأنثروبولوجيا عن تلك الموجودة في التقاليد الأوروبية، إذ بقيت اللسانيات والأنثروبولوجيا الاجتماعية تخصصات منفصلة بشكل قطعي في القرن العشرين، على الرغم من التركيز على استعمال اللغات المحلية في العمل الميداني بين علماء الأنثروبولوجيا في المملكة المتحدة، والتأثيرات النظرية والمنهجية لـــ(برونيسلاف مالينوفسكي) (١٨٨٤ – ١٩٤٢م) ، الذي كتب عن أهمية البحث اللغوي لفهم أنثروبولوجيا المجتمعات البشرية.

في خمسينيات القرن الماضي، كان اعتماد مصطلح الإثنولوجيا اللغوية (الذي يعكس التفضيل الأوروبي للإثنولوجيا على الأنثروبولوجيا الثقافية) بارتكازه على تلك الدراسات التي دمجت الاهتمامات اللغوية مع الأنثروبولوجية، ويشير الاعتراف الفكري، على الأقل في بعض الدوائر الأكاديمية الأوروبية، لأهمية الجانب الإثنولوجي للدراسات اللغوية، ولكن الاعتراف المؤسسي لمثل هذا التخصص داخل الأنثروبولوجيا الأوروبية كان بطيئًا، ومن ثم ، فإن العلماء الأوروبيين الذين لديهم اهتمامات بحثية مماثلة لاهتمامات علماء الأنثروبولوجيا اللغوية في أمريكا الشمالية هم أكثر احتمالاً في أقسام اللسانيات واللغات الأجنبية والآداب والفولكلور والتواصل وعلم الاجتماع وعلم النفس.

لأجل فهم الدور الخاص الممنوح لدراسة اللغات ضمن هذا التقليد (أي اسهامات المدرسة الامريكية ولاسيما عند فرانس بواس)، يجب أن نعود إلى الوقت الذي أصبحت فيه الأنثروبولوجيا معترفاً بها في الولايات المتحدة الأمريكية، في المدة التي تنحصر بين العقود الأخيرة من القرنين التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، إذ ظهر (في ذلك الوقت) الدراسة للغات الأمريكية الهندية كجزء أساس من البحث الأنثروبولوجي.

تعد اسهامات John Wesley Powell(١٨٣٤ – ١٩٠٢م) مؤسس مكتب الاثنولوجيا، الذي أعاد تسميته الى المكتب الأمريكي للإثنولوجيا[١](BAE)، والمدعوم من المنح التي تقدمها الحكومة الأمريكية، هي أُولى الإسهامات، ولاسيما في مجال العمل الميداني اللغوي، باعتقاد مفاده: أنه من خلال جمع المفردات والنصوص من لغات هنود أمريكا، سيكون من الممكن إعادة بناء علاقاتهم الوراثية وبالتالي المساعدة في تصنيف القبائل الهندية الأمريكية. ثم اعقبه (F. Boas) الذي توجهت اهتماماته نحو البنى النحوية لقبائل الشينوك[٢](Chinook) ولغات أخرى من الساحل الشمالي الغربي الأمريكي في أعماله الميدانية، واستغل فرصة العمل في مكتب (BAE) وتحرير دليل اللغات الهندية الأمريكية عام (١٩١١م)، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى كانت الفكرة التي تشير الى أن بعض اللغات متفوقة على لغات أُخرى وأنه حافظت اللغات الأدنى على الفقر الفكري للمتحدثين بها، واسعة الانتشار في أوائل القرن العشرين، على سبيل المثال، سعى اللغوي الأمريكي وليام دوايت ويتني (W. D Whitney) جاهداً للقضاء على اللغات الأمريكية الأصلية، مجادلاً أن متكلميها كانوا متوحشين وأنهم سيكونون أفضل حالاً في تعلم اللغة الإنجليزية وتبني أسلوب حياة متحضر.

تحدى (Boas) هذا الرأي، أثناء بحثه الإثنوغرافي في شمال كندا (الأسكيمو) وشدد على القيمة المتساوية لجميع الثقافات واللغات، وأنه لم يكن هناك ما يسمى بلغة بدائية وأن جميع اللغات كانت قادرة على التعبير عن نفس المضمون، وإن كان بوسائل مختلفة على نطاق واسع، ورأى أن اللغة جزء لا يتجزأ من الثقافة وكان من بين أوائل الذين طلبوا من الإثنوغرافيين تعلم اللغة الأصلية للثقافة قيد الدراسة وتوثيق الثقافة اللفظية مثل الأساطير والحكايات في اللغة الأصلية(Birx, 2006: p843). على الرغم من أن بواس، انتشاريا، الا انه كان مشككاً إلى حد

كبير في إمكانية استعمال اللغات لإعادة بناء العلاقات الوراثية بين القبائل، وكان ضد أي علاقة بين اللغة والرس، وحاول أن ينقل لطلابه اهتماماته بأهمية الوصف اللغوي والإيمان بأن تعدد اللغات أداة مهمة لـــ:

١. العمل الميداني.

٢. دراسة الثقافة، لأن فئات وقواعد اللغة هي إلى حد كبير لا واعية، وبالتالي لا تخضع للتبرير العرضي (Duranti, 1997 p:52)

وقد ايقن (Boas) من خلال دراساته الإثنوغرافية بأن لا أحد يستطيع أن يفهم حقاً الثقافة دون الوصول المباشر إلى لغتها، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين الثقافة واللغة بالقول: تحتل المعرفة باللغة الهندية مكانة المساعد المهم الذي نستطيع أن نتوصل منه الى فهم تام لكل من العادات ومعتقدات الناس الذين ندرسهم...وإذ تقرضنا اللغة التي هي في المقام الأول عملية واحدة، خدمة جلية بوصفها تعد وسيلة فهم الظواهر الإثنولوجية بشكل واضح، والتي في حد ذاتها لا علاقة لها بالمشاكل اللغوية... ويبدو، مع ذلك، أن الدراسة النظرية للغات الهندية ليست بأقل أهمية من المعرفة العملية عنهم؛ وأن البحث اللغوي البحت هو جزء لا يتجزأ من تحقيق شامل لسيكولوجية شعوب العالم. فالاثنولوجيا أو الإثنية اللغوية، هي العلم الذي يتعامل مع الظواهر الذهنية لحياة شعوب العالم، وإن اللغة البشرية، وهي واحدة من أهم مظاهر الحياة الذهنية، التي تبدو وكأنها تنتمي بشكل طبيعي إلى مجال عمل الاثنولوجي (Duranti, 1997 .p:53)

إن وجهة نظره عن أهمية اللغة للفكر الإنساني ومن ثم للثقافة الإنسانية، قد أصبحت أطروحة أساسية للأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية في النصف الأول من القرن العشرين، باختصار، يمكن أن تعمل الثقافة على الأرجح على أساس الأفكار المجردة، ويبدو أن هذه بدورها ممكنة فقط من خلال الكلام، أو من خلال بديل ثانوي للغة المحكية مثل الكتابة والترقيم والتدوين الرياضي والكيميائي وما شابه. إذ بدأت حينها الثقافة عندما كان الكلام موجودًا. ومنذ ذلك الحين، أدى إثراء أي منهما إلى مزيد من التطوير للآخر.

ومن الناحية المنهجية، فإن نظرته لدور اللغة في الثقافة تعني أن النظم اللغوية يمكن دراستها كمرشدات للأنظمة الثقافية، وأدى افتتانه باللغة إلى نشر العديد من المجلدات الإثنوغرافية وتدوين ما يستذكره المخبرون عن التقاليد الماضية، بما في ذلك الاحتفالات، والفن، وما إلى ذلك. علاوة على ذلك، كان ملتزمًا بما أصبح يعرف فيما بعد بـــ(إنقاذ الأنثروبولوجيا salvage anthropology)، أي توثيق اللغات والتقاليد الثقافية التي بدت على وشك الاختفاء، وان واجه هذا المشروع صعوبات في وقته بسبب الضرر الكبير الذي حدث بالفعل للشعوب الهندية، نتيجة العمليات الاستعمارية والإبادة التي كانت تمارسها تلك الدول تجاه الشعوب التقليدية.

لقد جلب من خلال كتاباته وتدريسه الجامعي، الدقة العلمية للوصف اللغوي وساعد في هدم عدد من الصور النمطية التي لا أساس لها عن اللغات التي كانت تسمى آنذاك بدائية (primitive)، وفي مقالته التي صدرت عام (١٨٨٩م) بعنوان (عن الأصوات البديلة On) alternating sounds، احتج على الرأي السائد بأن متحدثي اللغات الهندية الأمريكية كانوا أقل دقة في نطقهم من المتحدثين باللغات الهندية الأوروبية وكان ادعاءً زائفا ربما بسبب عدم وجود تعقيد لغوي لتلك اللغات.

وتماشيا مع نسبيته الثقافية، حاول أولاً وصف اللغات الأصلية، واعتقد أَن كل لغة يجب أن تدرس وفقا لشروطها الخاصة وليس وفقا لبعض الفئات المحددة مسبقا بالاستناد على دراسة اللغات الأخرى غير ذات الصلة وراثيا كاللاتينية. وعرض في مقدمة كتابه جامع اللغات الهندية الامريكية الصادر عام (١٩١١م) لمحة عامة عن الفئات النحوية والوحدات اللغوية اللازمة لتحليل اللغات الهندية الأمريكية ورفض الإفراط في الإعمامات التي من شأنها أن تحجب الاختلافات بين اللغات، وقد أصبحت توجهاته معروفة فيما بعد بالمدرسة الوصفية الأمريكية(Birx, 2006: p843).

إن أبرز إسهاماته عند دراسة اللغة هي طريقة تطوير الرسم الصوتي للغات الهندية الامريكية التي اعتمدت بشكل ضئيل على الفئات والمجموعات المألوفة في اللغات الأوربية، وكذلك تدريب أعداد كبيرة من علماء الانثروبولوجيا في استعمال تلك الطريقة، وعند النظر اليهم بوصفهم

علماء في الأنثروبولوجيا كانت تمريناتهم تنطوي على تزويدهم بما يحتاجونه لفهم الثقافة التي كانت اللغة المدروسة وسيلتها، واما بوصفهم علماء في اللغة فانه يتم النظر في التوصيفات على انها غاية في حد ذاتها وليست مصدرا من مصادر البيانات لبناء نظرية عامة عن اللغة، ويوضح: في الوقت الذي لا أميل فيه الى التأكيد القطعي من أن مناطق توزيع الظواهر الصوتية والخصائص الصرفية والمجاميع التي تعتمد على التشابه في المفردات، متميزة بشكل قاطع، اعتقد انه يجب الإجابة على هذا السؤال ميدانيا قبل ان نتعهد بحل المسألة العامة المرتبطة بتاريخ اللغات الامريكية الحديثة. وإذا ثبت صحة ذلك الاعتقاد–واعتقد أنها ستثبت–أن جميع تلك المناطق المختلفة لا تتطابق، يصبح الاستنتاج عند ذلك حتميا ان اللغات المختلفة لابد أنها تؤثر في بعضها بشكل كبير، وإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة، علينا ان نسأل انفسنا إذا: الى أي حد تمتلك ظواهر اكتساب الثقافة الأخرى الى حيز اللغات(Duranti, 1997 p:55).

وقد حدد العبارة اللغوية sentence (في مقابل اللفظة word) على انها وحدة للتعبير عن الأفكار، وأدرج عددا من الفئات النحوية التي من المحتمل أن توجد في جميع اللغات، وأشار إلى أن المحتوى المادي للألفاظ (معنى المواد اللغوية) هو لغة محددة وأن اللغات تصنف الواقع بشكل مختلف. قد تعبر إحدى اللغات عن الروابط الدلالية بين الألفاظ المرتبطة بالحقل الدلالي نفسه عن طريق تعديل جذور أساسية واحدة، بينما قد تحتوي لغة أخرى على الفاظ لا علاقة لها على الإطلاق بطريقة اشتقاقية. وكمثال على النوع الأخير، ذكر الألفاظ المختلفة التي تستعمل في اللغة الإنجليزية للمفهومات التي تدور حول فكرة الماء، كالبحيرة، والنهر، والمطر، والندى، والموجة، والرغوة، أو انه هناك في اللغة الانكليزية كلمة واحدة للتعبير عن الثلج، بينما تحتوي لغة الأسكيمو على جذور أساسية منفصلة للتعبير عن الثلج، كالثلج المتساقط، والثلج على الارض، والثلج الذي تجرفه الرياح، وهكذا هناك ألفاظ مختلفة للمفهومات القائمة على الثلج عند الأسكيمو. وفي تعليق أخير: لا يبدو من المحتمل وجود أي علاقة مباشرة بين ثقافة القبيلة واللغة التي يتحدثون بها، باستثناء ما إذا كان شكل اللغة سيتم تشكيله من خلال حالة الثقافة، ولكن ليس بقدر ما تكون حالة معينة من الثقافة مشروطة بالسمات المورفولوجية للغة.

ثالثاً: التوجه السياقي عند برنسلاف مالينوفسكي

رهن (B. Malinowski) حياته الأكاديمية لسكان جزر التروبرياند من بداية إقامته الميدانية في عام (١٩١٤م) الى وفاته في بداية العقد الرابع من القرن الماضي، وأصبح مهتما جدا باللغويات – عندما وجد أنه لا يستطيع أن يدرك مشروعه في كتابة قواعد كيليفيلا (Kilivila) اي اللغة التي يتحدث بها سكان التروبرياند التي تنتمي الى عائلة اللغات الاسترونيزية، لأنه لم يكن لديه تدريب لغوي، ولأنه كان على حق – مقتنعًا – بأن الفئات النحوية التي توفرها النظريات اللغوية له آنذاك لم تكن مناسبة لوصف هذه اللغة. فإذا تعامل المرء مع لغة جديدة، وعليه تدوينها، مع وجهات نظر وتعريفات نحوية ثابتة وجامدة، فمن السهل تمزيق أوصال التجميع الطبيعي للحقائق وضغطها في مخطط مصطنع. وعندما يتعامل المرء مع تلك المبادئ التصنيفية الموجودة في لغة كيريوينا (Kiriwina) وهي جزيرة في غينيا الجديدة، فانه يمكن له دراسة القواعد النحوية فقط بالتزامن مع المعنى، والمعنى فقط في سياق الحالة.

بشكل عام، تركزت اهتماماته اللغوية على اللغة بوصفها نمطاً للسلوك وعلى مشكلات المعنى الثقافي الذي ينص صراحة على أن الوظيفة الرئيسة للغة ليست للتعبير عن الفكر وليس التكرار للعمليات الذهنية، وانما تلعب دوراً فعالاً في السلوك البشري، لكن هذا لا يعني أنه ينكر أن اللغة هي أداة تفكير وتواصل للفكر(Metraux 1968: p524).

وعلى العكس من ذلك، يقول: تتلقى الحالات الذهنية (العقلية) لأعضاء مجتمع معين طابعًا معيناً الذي يصبح أُنموذجا نمطيًا من خلال النظم التي يشترك فيها أعضاء ذلك المجتمع، من خلال التقاليد والفولكلور، ومن خلال وسيلة التفكير ذاتها، وهذا يكون من خلال اللغة. يبدو من هذا التصريح أنه يتوقع أفكار (Sapir) و (Whorf)فيما يرتبط بمبدأ النسبية اللغوية – ويصر على أنه عند البحث، فإنَ دراسة الجانب اللغوي لا غنى عنه، ولا سيما إذا أردنا فهم العوامل النفسية–الاجتماعية للقبيلة، أي طريقة تفكيرهم، بقدر ما هي مشروطة بسمات ثقافتهم، ولكن بالنسبة له، لا يمثل هذا الاستعمال للوظيفة الرئيسية ، وانما وظائف علمية متطورة للغة

طور نظريته الإثنوغرافية للغة بشكل رئيسي فيما يرتبط بمحاولاته لترجمة الصيغ السحرية للجزر المرجانية، إذ أدرك أن سكان جزر التروبرياند Trobriand تؤمن بقوة الكلمات في

الصيغ السحرية، وتسعى جميع الصيغ إلى تحقيق أهداف معينة قد تصل إليها إما عن طريق طلب وقبول الأشخاص المعينين لهم للقيام بها لتغيير شيء ما، أو عن طريق تقوية عمليات التغيير، وبالتطورات اللازمة للوصول إلى هذا الهدف، أو فقط بوصف الظروف والآثار المترتبة على ذلك، ويستعمل سكان الجزيرة هذه الصيغ السحرية مع اقتناع راسخ بأنهم يستطيعون التأثير والتحكم في الطبيعة ومسار حياتهم وأحداثهم فيها، وقد تم وصف هذا الجانب من السحر على النحو الآتي: هذا هو استعمال الكلمات التي تستحضر أو تهدف أو تقود الى الهدف المنشود. وقد لخص هذه الملاحظة على النحو الآتي: السحر هو ... أداة تخدم أغراضا خاصة، تهدف إلى ممارسة القوة الخاصة بالإنسان على الأشياء، ومعنى ذلك، إعطاء هذه الكلمة معنى أوسع، ويمكن فهمها فقط في ارتباطها بهذا الهدف. وقد استنتج كل من (Nerlich and Clarke)إلى حد كبير، ان ما يعنيه (Malinowski)بوضوح هي الوظيفة التداولية، اي بالنسبة له "يكمن المعنى في الوظيفة العملية التخاطبية للأقوال (Nerlich and Clarke, 1996: p321).

وهذا أمر أُنموذجي في طريقة النظر إلى اللغة وظيفيا وسياقيا مع الدلالات كنقطة انطلاق للتحليلات اللغوية، إذ بالنسبة إليه فإن معنى الكلمة يكمن في الاستعمال، وهكذا، لدراسة المعنى لا يمكن للمرء أن يفحص الكلمات المعزولة ولكن الجمل أو الألفاظ في سياقها الموضعي: ان الفهم الحقيقي للكلمات دائمًا ما يكون مستمدًا من التجربة الفاعلة لتلك الجوانب الخاصة بالواقع الذي تنتمي إليها الكلمات

يوضح كيف يمكن تحديد معنى الأقوال فيما يطلق عليه الاستعمالات الأساسية الخاصة للكلام: اي الكلام في العمل، والتعامل مع الطقوس بالكلمات، السرد، وروابط المجاملة (اي الكلام في المجالسة الاجتماعية) إذ تعد هذه الأنواع الأربعة لاستعمالات اللغة هي الأساسية بالنسبة إليه.

وتشير مناقشة اللغة المستعملة فيما يصفه بالمجالسة الاجتماعية العارضة، والحرة، وعبارات تعبر عن التأدب...واستفسارات عن الصحة، وتعليقات عن المناخ، وتأكيدات على بعض الأمور الواضحة للغاية، وصيغ الترحيب إلى ما يلي: ...انها الفاظ في روابط المجاملة أساسا التي تحمل المعنى عند الجماعة، وهل هذا المعنى رمزيا عندهم؟ بالتأكيد لا !إنهم يؤدون وظيفة اجتماعية

وهذا هو هدفهم الرئيس، وليس نتيجة للتأثير الفكري، ولا يثير بالضرورة عندهم انعكاساً بالنسبة للمستمع ... إذ إن كل الكلام هو فعل يخدم الهدف المباشر لربط المستمع لبعض المشاعر الاجتماعية أو غيرها، إذا مرة أخرى، لا تبدو لنا اللغة كأداة للتفكير ولكن بوصفها طريقة للعمل...(Senft, 2005: p143).

تعمل روابط المجاملة على إنشاء روابط التآلف الشخصي بين الأشخاص الذين يجمعهم مجرد الحاجة إلى المرافقة ولا تخدم أي غرض من أفكار التواصل. بعد هذا التعريف لمفهوم روابط المجاملة يؤكد مرة أخرى على موقفه الرئيس فيما يرتبط باللغة: اللغة في وظيفتها البدائية والشكل الأصلي لها طابع تداولي بشكل أساس...إنها نمط من السلوك، وعنصر لا غنى عنه في العمل الإنساني المتضافر...بوصفها وسيلة للتجسيد أو التعبير عن الفكر عندما يتخذ وجهة نظر من جانب واحد من أكثر وظائفه المشتقة والمتخصصة وهو مقتنع بأن اللغة تستخدم لأغراض محددة، وأنها تعمل كأداة مستعملة ومتوافقة مع هدف محدد.

يجسد بعد ذلك الطابع الواقعي(التداولي)للغة من خلال الإشارة إلى عمليتين من تجربته في جزر التروبرياند هما رحلة صيد والإرشاد اللفظي لقارب الصيد في قناة مرجانية في الظلام الدامس حيث وأشار إلى أن الكلمات يجب أن تنطق بصدق لا تشوبها شائبة ومفهومة بطريقة مناسبة تماما، حيث إن حالات الكلام هنا هو الملحق الذي لا غنى عند العمل، إذ يلخص تحليل الأفعال اللغوية التي لاحظها خلال حملة الصيد عنه للآتي:

إن كل اللغات المستعملة خلال هذه الممارسة هي المليئة بالمصطلحات الفنية، واشارات مقتضبة نحو البيئة المحيطة، ومؤشرات سريعة للتغير الحاصل في عملية الصيد، وكل ذلك يعتمد على أنواع السلوك العرفي، المألوف جيداً لدى المشاركين بالتجربة الشخصية في مثل هذه الرحلات، كل كلمة مرتبطة بشكل أساس بسياق الحال مع الهدف من الممارسة، سواء أكانت المؤشرات القصيرة عن تحركات الصيد أو بلاغات مرجعية عن المناطق المحيطة، أو التعبير عن الشعور والعاطفة المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسلوك، أو كلمات القيادة أو ارتباطات العمل. إن تركيبة كل هذه المادة اللغوية تختلط معًا وتعتمد على مسار الفعل الذي يتم فيه تضمين الكلام،

فالمفردات، ومعنى الكلمات الخاصة المستعملة في التقنية المميزة الخاصة بهم لا تقل عن العمل(Senft, 2005: pp144-145).

بالنسبة للغة الفنية، في المسائل العملية للممارسة، تكتسب معناها فقط من خلال المشاركة الشخصية في هذا النوع من الممارسة. يجب تعلمها، ليس من خلال التفكير ولكن من خلال العمل...إن دراسة أي شكل من أشكال الكلام فيما يرتبط بالأعمال الحيوية من شأنه أن يكشف عن الخصائص النحوية والمعجمية نفسها: اعتماد معاني كل كلمة على التجربة العملية وبناء كل كلمة على الحالة الموقتة التي يتحدث بها، وبالتالي فإن النظر في الاستعمالات اللغوية المرتبطة بأي جهد عملي، يقودنا إلى استنتاج أن اللغة في أشكالها البدائية يجب أن يتم النظر فيها ودراستها على خلفية الأنشطة البشرية وكطريقة للسلوك في الأمور العملية.

من الواضح أنه في هذا النص يشدد ويؤكد الفعل على حساب البناء والنظام، وإنه يناقش كذلك بأن هذا التكيف، وهذا الترابط بين اللغة والاستعمالات التي يتم وضعها، قد ترك آثاره في البناء اللغوي(Nerlich, Clarke 1996: p333)

لذلك، تعد فئات القواعد النحوية بالنسبة إليه هي انعكاسات المواقف الإنسانية العالمية تجاه الحياة، والتي يتم إخراجها من خلال الظروف العالمية التي ينشأ فيها الأطفال في العالم، وهكذا، فإن فئات القواعد العالمية هذه يجب أن تكمن وراء التصنيفات الضمنية في السلوك الإنساني غير اللغوي. وطور (Malinowski)في المجلد الثاني من "حدائق المرجان وسحرها" الفكرة المركزية لنظريته، أي "أن المعنى الخاص بالألفاظ يوفرها سياق النشاط البشري المتزامن" ويشير إلى أن "الحقيقة اللغوية الحقيقية هي التعبير الكامل في سياق حالته "ويؤكد "أن سياق الحالة قد يمكّن المرء من إزالة جمل غامضة لغويا (Langendoen 1968: pp27-32)؛ وتعتمد نظرية السياق للمعنى على تعريف واسع لمفهوم السياق:

يشير (Malinowski) إلى أنه من المفيد جداً في اللغويات توسيع مفهوم السياق بحيث لا يشمل فقط الكلمات المنطوقة ولكن التعبير الوجهي، والإيماءات، والأنشطة الجسدية، ومجموعة كاملة من الناس الحاضرين خلال تبادل الكلام وجزء من البيئة التي ينخرط فيها هؤلاء

الأشخاص. لقد ميز نظريته المعهودة في المعنى كنظرية تصر على ربط الأوصاف الإثنوغرافية بالتحليل اللغوي الذي يزود اللغة بسياقها الثقافي وثقافتها بتفسيرها اللغوي. إذ سعى ضمن هذا النص الأخير باستمرار إلى تبني قواعد اللغة مع سياق الموقف ومع سياق الثقافة (Senft, 2005: p146).

ورأى أن اللغة وفقا لممارستها بين أصحابها إنما هي نوع من السلوك وضرب من ضروب العمل وليست وسيلة من وسائل توصيل الأفكار أو الانفعالات أو التعبير عنها أو نقلها. وأدرك هذا عندما كان يحاول ترجمة النصوص التي سجلها لسان جزر التروبرياند إذ تبين له انه من المستحيل له ان يترجم عدداً كبيراً من الأنماط اللغوية المستعملة في لغتهم الى اللغة الانكليزية كلمة كلمة ولاسيما العبارات المرتبطة بمعتقداتهم الدينية أو العبارات ذات الاهمية الخاصة في لغتهم وعند المحاولة في حل هذه الإشكالية وجد نفسه يصوغ نظريته في اللغة والمعنى

كان مهتما ببحث أسباب فشله في تقديم ترجمة حرفية ناجحة لنصوصهم اللغوية، لذا فقد بدا له أن الترجمة الصحيحة والدقيقة ستكون كذلك إذا وضعت في السياق نفسه الذي قيلت فيه ومن هنا تأتي له الاهتمام بمسألة مقتضى أو سياق الحال[٣] (context of situation) فهو عنده الطريقة التي يجب أن تدرس بها معاني اللغة ولذا فقد عد المعطيات الاجتماعية بمثابة الخلفية التي يجب الرجوع اليها لتحديد القصد من البناءات والتراكيب التي قد توحي بأكثر من معنى (التي تحمل عدة دلالات أو الجمل الملبسة الدلالة) فالمعطيات الاجتماعية اشبه بأداة يستعملها الباحث اللغوي ليتمكن من فهم اشكال لغوية محددة وتحليلها.

ان اللغة عنده اداة للنشاط الاجتماعي والنشاط الإنساني المشترك ومعنى أي نمط منطوق يتحدد من خلال دراسة أثره في المحيط الذي استعمل فيه ولهذا فانه كان يردد أن المعنى ما هو الا الاستعمال إذ لو وجد أحد الأوربيين نفسه وسط مجتمع من التروريانديين وأعطى ترجمة حرفية لكلامهم لما ساعدهم ذلك على فهمهم بأكثر فيما لو بقيت العبارات من دون ترجمة، فمعنى العبارات لا يتضح إلا من خلال نمط الحياة التي هم جزء منها، ومن ثم، فإن دراسة اي لغة،

لابد ان تكون مسبوقة بدراسة أخرى لأوجه النشاط العامة للمجتمع، الذي يستعمل هذه اللغة، لأن اللغة من وجهة نظره، ليست في الواقع إلا جزءا من هذا النشاط، وطريقا من طرائق السلوك.

ويعتقد أن رؤية اللغة كوسيلة لنقل الأفكار من رأس المتكلم الى راس السامع ليست سوى خرافة مظللة فالتكلم في الثقافات البدائية ليس (قولا) بل (عملا)، فاللغة باستعمالاتها البدائية حلقة اتصال في نشاط بشري جماعي انها نمط من العمل وليست أداة للتأمل، ويورد في معرض شرحه لرأيه بعثة صيد في التروبرياند فيقول: يتم توجيه مجموعة من قوارب الصيد وتنظيم حركتها باستمرار عن طريق الكلام...فالصرخة التي تعلن وجود كمية من الأسماك تعني إعادة تنظيم حركات القوارب من جديد. ومن جهة أخرى فإن الطريقة التي استعملت فيها اللغة الآن في كتابة هذه الكلمات هي من الاستعمالات الفرعية والبعيدة للغة، فالكلمات هي أدوات ومعنى الأداة يكمن في استعمالها.

والمشكلة التي تعترض هذا الرأي هي أن سكان جزر التروبرياند أنفسهم كانوا يمضون قسطا لا بأس به من الوقت في التحدث الى بعضهم البعض، دون ان يدور الحديث عن نشاطاتهم المشتركة، وهذا النوع من الكلام بالنسبة إليه، لابد من أن يؤدي عملا ما، لذلك يقول إن وظيفته هي إيجاد، أو الحفاظ على روابط العاطفة بين المتكلمين، وقد ادخل روابط المجاملة (phatic communion) للتعبير عن الكلام الذي يؤدي هذه الوظيفة والذي يكون فيه معنى الكلمات المألوف خارجا عن الموضوع، ويورد عبارات مثل كيف حالك، وهذا يوم جميل، كأمثلة على هذا النوع من التواصل في الانكليزية

الخاتمة:

يمكن ادراج في ادناه المؤشرات والأفكار والميزات الاساسية التي تميز حقل ومجال الأنثروبولوجيا اللغوية:

١- يعتمد معنى أي كلمة مفردة بدرجة كبيرة على السياق، الذي يجب أن ينبثق من تلك القيود التي تحكم مجال اللسانيات، على أن يتم نقل وتحليل السياق في ضوء الظروف العامة التي

تحدث أو تجري فيها التخاطبات اللغوية، أو عند دراسة أي لغة، ويجب أن يتم تنفيذه من خلال الأشخاص الذين يعيشون في كل الظروف والثقافات.

٢- تعد الأنثروبولوجيا اللغوية فرعا من الأنثروبولوجيا الثقافية وفقا لتوجهات المدرسة الامريكية ومجالا فرعيا معرفيا من الأنثروبولوجيا الاجتماعية على وفق توجهات الدراسة الأنثروبولوجية الاجتماعية البريطانية، إذ توجهت اهتماماتها نحو مكانة اللغة في السياق الاجتماعي والثقافي الأوسع، ودورها في صياغة واستدامة الممارسات الثقافية والبناءات الاجتماعية. وعلى هذا النحو، تسعى إلى تغطية المعنى الذي يكمن وراء استعمال أو إساءة استعمال أو عدم استعمال اللغة بكل قواعدها النحوية والبلاغية والدلالية، وأشكالها المختلفة، وأساليبها المتنوعة، إذ تعد اللغة على إنها النظام التأويلي، الذي يمكن ان ننزع منها التراكيب المعقدة الخاصة بالفونيمات ومجال الكلام والمخاطبة...لإيجاد نمط التفاهمات الثقافية.

٣- تعمل الأنثروبولوجيا اللغوية على دراسة اللغة بوصفها مورداً ثقافياً وكممارسة ثقافية...إذ تعتمد على مجموعة الأساليب الأنثروبولوجية التقليدية وتوسيعها باستعارة بعض الأساليب من التخصصات الأخرى ولاسيما اللغة، والغرض العام هو التعامل مع اللغة كنظام اتصال يسمح في بيان التشابه بين الأفراد أو الجماعات البشرية ومدى تمثيلها لذات الفرد أو الجماعة ومدى تمثيلها للنظام الاجتماعي ككل والكيفية التي تساعد الناس على استعمال مثل هذه التمثيلات في الفعاليات الاجتماعية... كما يعمل علماء الأنثروبولوجيا اللغوية على إنتاج حسابات رصينة مستندة إلى البحث الاثنوغرافي الكثيف للبناءات اللغوية عندما يستعملها الناس عيانيا في الوقت الحقيقي والمجال الحقيقي.

الهوامش:

- Bureau of American Ethnology
- تشمل شعوب Chinookan عدة مجموعات من السكان الأصليين في شمال غرب المحيط الهادئ في الولايات المتحدة الذين يتحدثون بلغات Chinookan.
- أي مجموع العناصر غير اللغوية التي يكتسب الكلام او النص من خلالها تمام معناه في الاستعمال.

Duranti A (1997) ***Linguistic Anthropology***. Cambridge University Press, Cambridge, UK

References:

- Firth, R. (1972). **Verbal and Bodily Rituals of Greeting and Parting**. In The Interpretation of Ritual: Essays in Honor of A.I. Richards, ed. J. S. La Fontaine. 1-38. London, Tavistock.
- Foley W A (1997) ***Anthropological Linguistics: An Introduction***. Blackwell, Malden, MA
- Hymes, D.H. (1963). **Toward a history of linguistic anthropology**. Anthropological Linguistics, 5(1).
- James, Birx, H. ed. (2006) **Encyclopedia of anthropology**, Sage Publications, Thousand Oaks, California.
- Langendoen, D. Terrence (1968) **The London School of Linguistics**. A Study of the Linguistic Theories of B. Malinowski and J. R. Firth. Cambridge, Mass.: MIT Press,.
- Metraux, Rhoda (1968) "**Bronislaw Malinowski**." International Encyclopedia of Social Sciences, Vol. 9 London: Crowell Collier and Macmillan.
- Senft, Gunter. (2005**) Bronislaw Malinowski and linguistic pragmatics.** In: Piotr Cap (ed.), *Pragmatics Today*, Frankfurt am Main: Peter Lang.